

بالألم المطلق الذي لا يكون قط إلا بغيضاً
منكراً ، والذي ما زال نبتني الخلاص
من ربقته

فقلت له : لم يكن هذا عهدي بك
يا أدوار ، فقد كنت باقعة المرح ،
ومقدمنا في الأفراح ، وقانداً إلى كل لهو
برى . فما الذي طرأ عليك حتى

غير طبيعتك وبدل خصالك
وأصبحت تنمت الماضي نعت
المصاحب ، وتندب بلواك وتبكي
شجوك وأشجانك ... ؟ أما أنا
فلا أحب إدامة الإطراق والتفكير
والهم ، ولا الاسترسال مع الخواطر
الحزنة والاندفاع في تيار الهواجس
المرحة ، وشأنى أن أفرق بين
الخواطر الحزن وأخيه بالفكرة
السارة ، والدكري المفرحة .
فقال إدوار :

— إن هذه الخواطر الحزينة
التي تعمل فطرتك الطروب على
مطارقتها ، مع ما طويت عليه
من حزن ، واحتوته من شجن ؛

لتكسبني لذة وتورثني متاعاً . ومنذ لعبت يد الحوادث
بمقدراتي ، وأوردني حسن الظن بالدنيا وناسها ،
ووفرة الثقة بصدقهم وإخلاصها ، والانخداع
بظواهر الأمور ، سجل العناء والألم ، صبوت
للحزن ، وتآقت نفسي إلى الأسى ؛ فسرحت
خاطري في أودية الدكري ، وإن من الحنين ما يستحب ،
ومن الدموع ما يستعذب

الحب والفتك

للكاتب الفرنسي أرمان بيكيير
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

تعريف بالقصة

• ارمان بيكيير Armand Bickert
كاتب فرنسي يوتى (نسبة إلى ليون)
المولد والنشأة . درس القانون ودخل
الجندية ، وتخاص غمار الحرب العظمى
وتخصص في كتابة القصص التي
تكشف عن نفسية بعض رجال الجيش
وقد أكسبته دراسته رقة في الأسلوب
ودقة في الوصف . وقد ترسم خطي
بعض كتاب الروس ، لأنه عكف على
تحميس ما طالع من مؤلفات تورجنييف
وتشيكوف وتولستوي ودوستويفسكي
وأندرييف . لنا نرى أدبه متأثراً
لأبعد مدى بالغموض والحاء والحزن
والطيرة . وقد نال جائزة فيمينيا
Femina بعد أن نشر تلك القصة التي
دلت على علو كعبه ، وهو يرى في
المرأة من الثقل وعدم الوفاء ما يجعلها
أداة القدر في السخرية من الرجال وعدم
البقاء على الحب ولو كان للحبيب الأول .

قال إدوار ديبون ، وكان
رفيق في المدرسة الثانوية ، وقد
ضرب الدهر بيننا أكثر من
ثلاثين عاماً :

من شأن الحزن أن يرجع
بصاحبه إلى العصر الماضي ،
فيشبهه في عالم الخيال كل نعمة
كان في سالف الأيام باشرها ، وكل
مسرة لابسها ، وكل لذة خالسها ،
وكل غبطة عاقرها ، وكل متعة
لامسها . ويطول به الوقوف على
أخيلة تلك اللذات والمطايب ،
ويكثر به التلوم على أشباح هاتيك
البهاج والمطارب ، مبدياً ما بها
من طريف المحاسن ، مما كان قد

خفي على المرء منها أيام يباشر حقيقة هذه النعم
واللذائذ ...

وكذلك الذكريات تذيب بعد افتقاد الأشياء
للهم ، غوامض أسرار كانت أيام وجدانه تغيب
عن الفهم ، فلا يدركها الفهم ولا يحيط بها العلم .
فن ذلك ترى يا صاحبي أن الحزن تخيم من فوقه
اللذة ، وأن البلاء الذي نحتمله إذ ذاك لا شبه له

قلت له : لقد تركتك وقد أحرزت إجازة التعليم الثانوي من « لسيه لوى تريز » وكنت تنوي أن تم دراستك في إيكول سنترال ، فقد كانت مواهبك الرياضية جد متألفة

أجاب : نعم ... ولكن والدي ألحقني بكلية سان سير الحربية ، لأن لأسرتنا تقاليد من عهد بوناپرت ، وكان لي جد وعم وخال حملوا السيوف وعرضوا الرماح ، وخاضوا غمار الحرب تحت لواء الأباطور نفسه ، فلم أعص له أمراً . وبعد أن تخرجت برتبة الملازم في سلاح المدفعية ، تمهيداً لترقيتي إلى صفوف أركان الحرب ، عينوا إقامتي في بلدة « آنسي » ولعلك يا أخي لا تعلم كيف تكون عيشة الضباط في الجيش ، ففي الفسادة التدريب العسكري وامتطاء صهوة الجياد ، ثم الغداء مع القاع مقام في مطعم يهودي ، وفي المشي الراح والسمر والميسر في الأيام الأولى من الشهر ، عند ما تكون أكياسنا عامرة بالمرتب . ولم يكن في بلدة آنسي في ذلك العهد بيت واحد مفتوح ، ولا فتاة واحدة صالحة للزواج ؛ فكان دأبنا التراور ، وأن تتلاقى في مشوى أحدنا ، حيث لا نبصر إلا وجوه الرفاق ؛ ولم يكن يخالطنا إلا رجل واحد من المالكين (هكذا كنا نسمي كل شخص خارج الجيش اعتزازاً بأنفسنا وازدراء بالآخرين) وكان هذا الرجل المالكى بناهز الثلاثين ، فمددناه - لحداثة أعمارنا - شيخاً كبيراً . يا للغرور ! وكان يمايز علينا بفضل حنكة وتجربة ، وكان لما انفرد به من طول الصمت وعمق السكوت وعبوس الوجه ، وذراية اللسان (حين يسمح لنفسه أن يتكلم) وصرارة التهكم ، وقع في نفوسنا وأثر بليغ . وكان يخيل إلى أدمقتنا الفتية الطائشة أن

لهذا الرجل ، لاريب ، نبأ خفياً وشاماً غامضاً ؛ وأن سرّاً مجهولاً يحيط بحياته . وأظنك يا أخي لا تزال تذكر دروسنا في علم النفس ، فأول وأقرب ما يبدو لنا من خصائصها هو الوجدان المسمى بالتطلع ، والميل إلى استكشاف الجديد والتلذذ به ؛ وقد علمنا أن كان له سابق خدمة عسكرية في الهوسار ، حيث أبلى بلاءً حسناً . ولم يعرف أحدنا العلة التي من أجلها ترك الجيش وهو في مقتبل العمر ، وطاب نفساً بالاستتار في آنسي ، حيث عاش عيشة جمعت بين الفقر من ناحية ، وبين التبذير والإسراف المهلك من ناحية أخرى ، فكان لا يزال يسير على قدميه ، لا يركب قط مطية ولا ينفق في كساء رث قديم ؛ ولكن طعامه كان بين أصحابه مشاعاً مشتركاً ، وكان خوانه لاخوانه مستباحاً ، ومباطه للداته منتهكاً ... لا أقول إن مائدته كانت رداحاً ، ولكن الخمرة كانت تقبض من دنانه فيضاً وتهطل من أقداحه هطلاً . وكان أشد ولعه وشغفه بالرماية ، ينصب الأهداف ولا يزال يرميها بطلقات بندقيته ... وقد بلغ في الرماية مبلغاً لم يُسمع به ، ولا يكاد يصدقه إنسان ؛ وكان حديثنا كثيراً ما يدور على النساء والقمار والمبارزة ؛ ولكن سيلفان (وهذا اسمه) لم يكن يشاركنا في هذا الحديث قط ؛ وكنا إذا سألاه : « هل بارز قط إنساناً ؟ » . أجابنا بإيجاز وجفاء : « أي نعم قد فعل ذلك » . ثم بأي ذكر التفاصيل فاستنتجنا أنه لابد أن يكون قد قتل رجلاً في مبارزة ، وأنه يحمل دمه المسفوك في عنقه ، ويشد وزره وإثمه إلى نياط ضميره .. ومهرنا ليلة للعاقرة وجلس ليوزع الورق بعد أن وضع على المائدة الخضراء ألف فرنك ذهباً . وكان من عادة سيلفان

فانسحبنا واحداً إثر واحد . ومضت ثلاثة أيام ولم تقع المبارزة والضابط الممتدى لا يزال على قيد الحياة فقلنا : أمن الجائر أن سيلفان لن يبارز خصمه ؟ إنه إذن لمولود من جديد ، وكأنه ورد سجل الأحياء ليومه . واقتنع سيلفان من الضابط بمعدرة واهية ، ثم صالحه وصافاه ، فسقط سيلفان في أعيننا معشر الضباط الشبان ؛ لأننا رأينا الجبن رأس المساوي . ولكن هنالك رجالاً يكفي مجرد النظر في وجوههم لأن تمتد فيهم الشجاعة ، وكان من بينهم ذلك الرجل الغامض . وما برحت الأيام أن تحت من صفحات أذهان رفاق ذكرى الحادث . واستعاد سيلفان نفوذه بيننا وسابق هيئته ، ما عداى أنا وحدي ؛ فقد زالت كرامته من نفسي ، وأصغرت وأزلت حتى تنكرت له وجعلت أخجل من النظر في وجهه ؛ وآنت منه المرة بعد المرة أنه بهم بمفاتحتي ليشرح لي حقيقة حاله ، فجعلت أروغ منه إلى أن ملّ وانصرف . ومالي برجل أغضى على القذى ، واحتمل الإهانة ، وترك صحيفته ملطخة بالعار دون أن يحرك ساكناً لتنقيتها من تلك الوصمة ؟ وكنا معشر الضباط الفتيان نرى الشجاعة كبرى المحامد وعلينا المناقب وفضل الحصال ، وقد يجعلها بعضنا ذريعة إلى كل منكر ، وشفيماً في كل وزر ومأثم ؟ !

وفي يوم من الأيام زارنا في ديوان التكمات وقال : « أيها الأخدان إنه قد طرأ عليّ ما يوجب رحلتني من التو واللحظة . وإني لمسافر الليلة وأرجو ألا تضنوا عليّ بمؤاكتي على مائدة الوداع في بيتي فانها المأدبة الأخيرة التي أحظى فيها بشرف الاجتماع بكم كسابق عهدنا » فقبلنا دعوته ، وفي الوعد

إذا تصدر مجلس الميسر أن يلزم تمام الصمت ، فلا يجادل ولا يناصم ، ولا يبلج باب حوار أو مناقشة . وكان بيننا في تلك الليلة ضابط جديد ، ورد حديثاً فرقنا فأتى في خلال اللعب بهفوة غير مقصودة بأن زاد رقماً واحداً في حسابه . فتناول سيلفان الطباشير في سكوت سكسوني وقيد العدد على صحته كمعادته ، وحسب الضابط الجديد الخطي . أن سيلفان أخطأ فشرع يناقشه الحساب ، فلم يحفل به صاحبنا واستمر يوزع الورق دون أن يعيره التفاته ، فنغد صبر الضابط . وتناول الأسفنجة ومحامها ما ظنه خطأ . فتناول سيلفان الطباشير وصحح الحساب ثانية ، وكان الضابط قد لعبت الخمرة برأسه وأحمت الدم في عروقه ، وهاج الغيظ عواطفه ، وأثار خاطره ضحك القوم ، فطار الغضب في دماغه وعددها على رب الدار إهانة ، وأمسك بشمعدان نحاسي كان على المائدة وقذف به رأس مضيئنا ورئيس منضدة اللعب فراغ الرجل وأفلت ، وقد كاد الرأجم يفلق جبهته كعلق النوى .. عند ذلك تولانا الدعر والروع والدهش ، ونهض سيلفان في سكينته وهو يحرق أنيابه حنقاً وعيناه تتأججان غضباً ، ولكنه ملك زمام نفسه وأحسن القبض على لجام أعصابه المهاجرة في وقت لا يملك فيه أقوى الرجال مشاعره وقال للممتدى : سيدى العزيز ! تكرم على وتفضل بالانسحاب من اللعب ، واحمد الله أن هذا الحادث قد وقع في داري ! فانسحب الضابط وهو يقول إنه مستعد أن يبارز خصمه بأي سلاح يختاره . ولم يشك أحدنا في عاقبة هذا الأمر ، وحسبنا صاحبنا الجديد التهور في عداد الموتى . واستمر اللعب دقائق معدودة ، وشهدنا انقباض صاحب الدار وضجره ،

بعض مجالسنا على الشراب أنى ضربت برتو الشهير الذي قد تنفي بذكره الشاعر الفريد ديفيني فصرت موضع الإعجاب ومحط التكريم ووصفني المشير ديزيرييه في أحد تقاريره الرسمية بأنى «أذى ضرورى للجيش وبلاء لا بد منه»، وانضم إلى فرقنا فى حديث من أسرة نبيلة، ذو جمال وذكاء وفتنة، فزعزح من مكانى، وتهدد سلطتى، ولكنه شرع يخاطب ودى فتلقيته بانقباض وجفوة، فأحجم عني واستشعرت له نوعاً من البغض الكامن، ولما رأيت حظوته لدى النساء ألح على الكرب وأكل الفيط شغاف قلبى، ثم التقينا فى مرقص بدار سرى من أعيان أورايج، وقد خصته ربة الدار - وكانت صديقة لى - بالحفاوة والعناية والملاطفة، فدنوت منه وهمست فى أذنه بلفظ جارح، فثار على ثورة الأسد، ولطمنى على وجهى، فقبضت على قائم سيفى، وأغشى على النسوة، فافترقنا لنتلقى فى الليلة نفسها بميدان المبارزة وكان الوغد إذ ذاك قليل الاكتراث بالموت، فحدثت نفسى: «أية فائدة هنالك فى انتزاع الروح من شخص لا يجعل للحياة شأنًا ولا يقيم لطول العمر وزناً؟»

فقلت له: الظاهر أنك غير متأهب للموت الساعة وأراك تستعد للقاء صديقك وما كنت عن ذلك بمأنفك

فأجابنى: إنك لا تمنعنى من ذلك، وعلى كل حال فستبقى لك على طلاقة نطقها متى شئت وسأبقى أبداً مستعداً للاستهداف لها تحت مشيتك

فأخبرت الشهود أنى لا أريد الاطلاق اليوم، وبذا انقضت المبارزة وفقاً لقانونها^(١) ثم اعتزلت

(١) وفقاً لقانون المبارزة لا بد أن يكون اللطم أطلق وأخطأ

المضروب لبيت دعوته فألفيت ثمت كل إخوانى، وكان سيلفان فى أحسن حال من الانشراح فسرى إلينا جانب من سروره وطربه، وجعلت أباريق الرحيق تفيض أختامها، والدنان يتدفق مدامها. ولما هم القوم بالانصراف أذن لهم جميعاً وقبض على يدى واحتجزنى، فلما خلا المكان من الجمع أجلسنى إزاءه وقال لى: لعلنا لا نلتقى بعد اليوم، فأرى قبل الفراق أن تتفاهم فى أمر بيننا قد غشيه الشك واعتوره الغموض. لعلك عجبت من إمساكي عن مبارزة السكير الأحمق رودولف. على أن حياته كانت فى قبضة يدى، مذ جعل لى حق اختيار السلاح، ولكن لو كنت أضمن حياتى كل الضمان لما أعفيتة قط من المبارزة، ولما ترددت لحظة فى استلال روحه من بين جنبيه، ولكن ليس من حق أن أعرض حياتى للملاك قبل الأخذ بثأر قديم وسبب ذلك أنى قد لطمت على وجهى منذ ستة أعوام، ولم أشف نفسى بعد من اللطم الذى مازال حياً يرزق

وما كنت ممن ينام عن الثأر حتى الموت. ثم جعل سيلفان يتحرك فى مجلسه كالحائر القلق، كمن به هم باطن وألم عميق، ولم يبق فى وجهه أقل أثر مما كان فيه آنفاً من الجذل والجبور، وكانت صفرة لونه وبريق عينيه وكثافة الطبايق النبث من غليونه وفه قد أعارت شخصه هيئة الشيطان، وصورة من مرادة الجحيم! وأخيراً تكلم فقال:

قد علمت أنى كنت ضابطاً فى فرقة الهوسار، وكان الفسق والفجور والدعارة هى المذهب والعرف المألوف فى أيامنا، فكنت شيخ الفاجرين وإمام الفاسقين وزعيم أهل الفراغ والخلاعة، فاتفق فى

دى لا فيسيل لافيه ، وصديقنا ورفيقنا فى المدرسة بنفسه ! فحاولت تسكين جأشى ، وزعمت لتبرير قدومى أننى عرفت مقره مصادفة ، فقدمت لزيارته . وجلسنا وأخذنا بأطراف الحديث ، فمالبثت أن وجدته كما عهدناه سهل الحديث ، عذب الكلام ، مرح الطبع ، خالياً من التكلم والتعمل ، فزادنى وحشة وهيبة وارتباكاً . وكنت كلما هممت بمصارحته بسر زيارتى أرتج على . واعترانى خيال لا عهد لى به ، فلم تكن الحياة من طبعى ، وإن كانت فى سبيل إنقاذ حياته ، وتخيب آمال ذلك الوحش الرابض المتربص فى قوكريسون ولا يلبث أن يظهر على مسرح تلك الحياة الهادئة ليورد ذلك الصديق الفريد والزوج السعيد موارد التلف ، من أجل صفقة ساخرة سقطت جريعتها بالتقادم . وتأكدت فى تلك اللحظة أن الحياة مأساة معقدة بميدة النور وإننا لا نمدو أن نكون ممثلين مسخرين لأدوارنا التى نتقن لعبها على الرغم منا

وإذا بالسكونتيس قد دخلت بغتة فأسرع إلى احتشائى وخجلى فقد كانت مفرطة الجمال ، ناعسة الطرف ، فارعة القد ، فقدمنى إليها السكونت بأحلى عبارات الاعزاز والترحيب وهما لا يعلمان أننى نذير الموت . فقد كنت كلما أمتعت فى الحديث تضائل أملى فى إنقاذ الرجل لما أعلمه من غليان الغضب فى قلب ذلك الجبار المنتقم المتبرم بالحياة ، المحروم من الحب . وأخذت أنظر إلى الجدران فاستوقفتنى صورة تمثل مشهداً طبيعياً ولكن الذى أدهشنى من هذه الصورة لم يكن جمالها وبديع صنعها وإنما وجود تقوى متجاوزة فى أديمها على أثر طلاقات نارية ، فقلت للسكونت : تالله إنها لرميات مسددة !

الأربعة فى مغانى باريس ومباهجها أمتع الروح والجسد بين غوانيسها ، ولشد ما ندمت على أننى لم أستشره وأشركه فى أمرى ! فلمله كان ينهى عن طيشى واندفاعى وقد جلبا سعادتى وشقاى ؛ فلما بلغنا ضاحية فوكويسون على مقربة من باريس استأذنت سيلمان أن أسبقه إلى العاصمة حيث كان يقطن خصمه فى بولفار دى نوايلس ، لأتعرف إلى الزوجين قبيل وصوله ، وأمهّد السبيل لبلوغ أمنيته ، فقبل وقال :

— حسن ! سأختلف كما أشرت ، فانت كشافى وطيمنى ونذير الهلاك إليهما ، ولكن احذر أن تقع فى شباك جمال الأنثى فتفسد على السعادة التى تنذبنى وهى اختطاف روح زوجها من بين جنبه . فلم أعقب على فكرته بجواب واكتفيت بإقتسامه حائرة رسمتها على شفتى يد الاشفاق والخوف معاً ، وإن كنت أتلهب تلهفاً وأتحرق نشوقاً لرؤية الزوجة التى ظننت أننى أسمى لإنقاذ بهلما من الموت المحقق . وكان سيلمان قد دلى على معالم القصر ولم يسح لى باسم صاحبه

ولما بلغت القصر قادنى أحد الخدم إلى حجرة المكتبة ، ليعان مقدمى ، وكانت الحجرة مزودة بكل آلات الترف ، فالجدران مبطنه بمطاط الأسفار ، محلاة بالتماثيل والدي ، وعلى صفة الموقد المنحوتة من الرمر المسنون ، مرآة عظيمة ، والأرض مفروشة بالدراى والطنافس . وأخيراً فتح الباب ودخل رجل بهى الطلعة جميل الصورة يناهز الثانية والثلاثين من العمر فتأكدت أنه خصم سيلمان ورب الدار . فإكان أعظم حيرتى عندما تقدم إلى محتضناً يقبلنى ! ! لقد كان هنرى بوردينوا كونت

فقال الكونت : وماذا كان من مهارة ذلك
الراى وحذقه ؟

قلت : لقد كان وحقك ، ربما أبصر بالندابة
على الجدار — إنك تبسمين يا كونتيس كالمرتابه في
صحه قولى — أقول : لقد كان ربما أبصر بالندابة على
الجدار فيصيح بخادمه قائلاً : « جوزيف هات لى
المسدس » فيأتيه جوزيف بالمسدس فيطلقه فاذا
الندابة قد انسحقت على مكانها ؟

قال الكونت : هذا مدهش ! وماذا كان اسم
هذا الرجل ؟ قلت : سيلقان

فصاح صديقى منتفضاً فى مجلسه : سيلقان ؟
أتعرف سيلقان ؟

قلت : كيف لا أعرفه يا صاحبي وقد كان
صديق الحميم ولا يزال ؟ لقد عاشرنا عشرة الأخ
إخوته ، على أنه قد مضى الآن أسبوع على آخر
عهدى به أو تعرفه أيضاً ؟

قال : إذن لا يزال على قيد الحياة !
قلت : وعلى قيد عشرين ميلاً من باريس وأظنه
يقم فى ضاحية فوكويسون

فامتنع وجه الرجل وجد فى مكانه كأنه أصيب
بطئمة نجلاء فى ظهره . فأدركت الكونتيس ما طرأ
على زوجها من التغير وقالت : أتعرفه أنت أيضاً
يا عزيزى ؟ فقال : أجل أعرفه حق المعرفة ! ألم
ينبتك قط بنياً عجيب وقع له فى حياته ؟

قلت : أنشير يا هنرى إلى حادثة اللطمة التى
أصابه بها رجل نذل خسيس فى بعض المراقص ؟
(قلتها لأبعد عن ذهنهما دنوها من الخطر وأثبت لهما
جهلى المطلق بما ينتظر الزوج)

فقال : ألم بصرح لك باسم هذا النذل الخسيس ؟
(ه)

فقال : أجل ، إنها رميات سائبة ! إنك
لا شك تحسن الرماية مثلى

فسرني انتقال الحديث إلى لباب الموضوع ،
وتمنيت أن أجد منه مدخلاً لقصدى وقلت :
— أحسنها بعض الشيء . إني أستطيع أن
أقرطس بطاقة من بطاقات الزبارة من مسافة عشرين
خطوة ، بشرط أن تكون الغدارة مما قد تعودت
الرمي به

فقال الكونتيس بلهجة المكثرت بالموضوع :
« حقاً ؟ » ثم التفتت إلى زوجها وقالت :

— وأنت يا عزيزى أستطيع أن تفعل ذلك ؟
فأجاب : لعلى فاعل ذلك يوماً ما ! وعلى كل حال
سأحاول هذا . على أنى لم أكن فى أيام السالفة
بالراى الأخرق ولا الطائش السهم ، ولكنه قد
مضى الآن أربعة أعوام على آخر عهدى بالرماية .
فأسقط فى يدي ، لأننى افترضت أننى قد أصل فى
مفاوضتى مع الوحش التربص فى آكام فوكويسون
إلى تبادل طلقتين بدلاً من أن يدفع الكونت حياته
ثمناً للطلقة الممهودة الباقية ديناً فى عنقه ، وأن يكون
هو البادى بالطلقة فيصرع سيلقان قبل أن يتمكن
من إزهاق روحه . ولكننى تجلدت وقلت :

— حقاً ؟ إذا كان الأمر كما قلت فما إخالك
قادراً على أن تصيب بطاقة على مسافة عشرين خطوة
فإن الرماية — كما لا يخفى — تحتاج إلى التدريب
اليومى ؟ وهذا ما نعلمه بالخبرة ، فإن أهملنا التمرين
فقدت يدنا الحذق والتسديد . وقد أذكر أن أضر
من رأيت من الرماة كان لا يزال يتمرن كل يوم
ثلاث مرات قبل تناول غدائه وكان قد تعود ذلك
تعوده الأكل والشراب

قلت : كلا إنه ما ذ كر لي اسمه قط !

فابتسم الكونت ابتسامة ساهمة حزينة وقد غادره بشره ، وحدثته نفسه ببعض ما وراء الأكمة وقال وقد عمراه أشد الاضطراب والانفعال : أنا هو ذلك النذل

فقلت متصنفاً الأسف : معذرة يا عزيزي وعفواً فقد أخفى عني الأمر

وكانت المائدة قد أعدت وقال الخادم في أدب : « إن الطعام ينتظر آكليته ياسيدي الكونتيس (١) » فنهضنا واكتفيت في هذه الليلة بهذا القدر من الكلام الذي هياته لي المقادير ، وقلت في نفسي وأنا أقوم متلكناً لأجاس على خوان هذين الزوجين : إلى هنا ينتهي مشهد من مشاهد تلك الرواية ، وإن الرواية لم تتم فصلاً . وقضيت في ضيافتهما أسبوعاً وأنا لا أملك أن أفاتحهما في نيا الكارثة التي سترميها بها فوكريسون

وفي ذات مساء خرجنا على خيل لهما ننتزعه في غابة بولونيا وشرع جواد الكونتيس يمرح ويتعوج في عطفه ويتزى ، ولعله لمح فرساً راقه منظرها ، وكنا في موسم الربيع عند ما يحلو للذكران من سائر المخلوقات أن تمشق لتنتج فتضاعف عدد الضحايا من الطير والحيوان والإنسان . فذعرت الكونتيس وترجلت وأسلمتني زمام جوادها وعدنا إلى القصر في مركبة ، غير أنا سبقناها إليه إذ كانت فضلت السير على الأقدام لقرب المسافة بين الغاب والمثوى ، ولتذهب الروح الذي أصابها من

« حنجلة (١) » الحصان . فلما بلغنا ساحة الدار بصرنا بمركبة وخبرنا أن رجلاً في انتظارنا بغرفة الطالعة ، فسألت قبل صاحب القصر من هو وما اسمه فقيل لي : إنه أبي أن يتسمى واكتفى بقوله إن له مع الكونت حديثاً في مسألة خطيرة ، فلم أرتب طرفه عين في أنه عدونا استبطاني لجاء يتقاضى روح صاحبي من زوجته ومنى . فأسرعت إلى الغرفة فألفيت في الظلام رجلاً أشعث أغبر لا عهد له بحاق ذقنه منذ أسبوع ، وكان واقفاً قرب صفة الموقد فدنوت منه وتفرست في وجهه وإذا ظني لم يخطئ قيد شعرة : سيلفان نفسه !!

فصحت قائلاً : سيلفان ! ولا أنكر أنني أحسست إذ ذاك أن شعر رأسي يقف وينتصب ، فما أدراك بحال الكونت ! ولكن سيلفان كان لبقاً وخبيثاً ، فلم يبد حقه على بعد أن تركته يتقل ، وقنع بأن حدجني بنظرة أبلغ من العتاب وأشأم ، تفسيرها : لقد طاب لك المقام يا غادر ! وليتك على الأقل لم تنفض بسرري . وبادره الكونت بالتحية ودعاه إلى الراحة والاستحمام والعشاء . فأجابه :

— ما لهذا جئت أيها السيد النبيل ، فإن مأموريتي لا تمكنني من قبول ضيافتك . والرجل لا يؤاكل من يعزم مصمماً على قتله

فقال الكونت متجاهلاً : على رسلك ! استرح أولاً ثم افعل ما شئت فإن في الوقت سعة فقال سيلفان وهو يحرق الأرم : إن لي عليك طلبة ، وقد أنيت أطلقها فهل أنت مستعد ؟ وكنت من فرط هلمي وروعتي لا أفكر إلا في مقدم الكونتيس أرجوه وأخشاه

(١) يقول خادم الغرفة Madame la Comtesse est servie أي تمت لها الخدمة بأعداد المائدة

(١) الحنجلة كالزعزعة والمخلخلة والمضمضة

وتتأرجح . ثم إنهما حشوا مسدسهما ، وعملنا
القرعة ثم اقترعا فوقعت للكونت النوبة الأولى كما
حدث في القرعة السالفة^(١) ففرحت بفتة ، ثم عدت
فذكرت الفرق بينهما في الرماية فان صاحبي مضى
عليه أربع سنين لم يتمرن خلالها مرة ، أما خصمه
فكانت الرماية غذاءه اليومي

وقال سيلفان عند ظهور القرعة : ما أسعد
حظك يا كونت ! وتناول هنري مسدسه وأطلق
فأخطأه وقال : الحمد لله إنها لم تصب ضيفي ؛ فأننى
أفضل الموت لنفسى على أن أمس شعرة من رأس
من أقبل على زائراً ولو كان مصمماً على قتلى . وكنت
أعتقد صاحبي مخلصاً في قوله . وتمنيت لو تصل تلك
المكرمة إلى أعماق قلب سيلفان فيخجل ويعدل ،
ولكن أنى لأنسال ابليس أن تصفع أو تنسى ؟
فقد رأيت سيلفان كأنه الشيطان فرفع يده بالسدس
يسدده ... وفي تلك اللحظة فتح الباب بفتة ودخلت
الكونتيس ، فأبصرت وجهها يتوهج من الوجد
توهج القبس المشتعل . أما الكونت فقد عاد وجهه
من تأثره أبيض من منديله . وصاحت الزوجة الشابة
صيحة منكرة وألقت بنفسها على عنق زوجها ،
فأعاد حضورها إلى زوجها كل قوته وجلده وقال
لها : مابالك يا حبيبتي ! ألا ترين أننا نمزح ؟ ما أشد
فرعك ورعبك ! إذ هي فاشربى كوباً ماء ، وعودى
إلينا فسأفندمك إلى صاحبي القديم وزميلي . فلم
تفلح كلماته هذه في إزالة الشك منها وبقيت مرتابة
حيرى فالتفتت إلى سيلفان الرهيب وقالت له :

— خبرنى بالله أحقاً ما يقول زوجى ؟ أحقاً
أنكما تمزحان ؟ إن غريزتى لا تخطئ في رعبى

وكان مسدس سيلفان بارزاً من جيبيه . وكأننى
قد صغقت واستحلت صخراً لا أملك أن أفوه بكلمة
ووددت لو أنقض على هذا الشيطان المتجسد رجلاً
لأعده الحياة بحجة الدفاع عن النفس أمام الخطر
المؤكد . ولكن الغدر لم يكن من طبيعى . وكان
الكونت أسرع من البرق قد قاس اثنتى عشرة
خطوة وأخذ موقفه في أحد الأركان ورجا خصمه
أن يسرع باطلاق مسدسه عليه قبل قدوم زوجته .
فردد سيلفان لحظة عاد إليّ فيها بعض الرجاء ،
ولكنه طلب نوراً فأحضرت الشموع وأغلقت
الأبواب ، وأمر الكونت ألا يدخل علينا أحد ثم
رجاه أن يطلق مسدسه . فاستخرج سيلفان المسدس
من جيبيه ثم صوبه نحو صدر صديق وسدده وكنت
أعد الثوانى . وتذكرت الكونتيس ونحن في تلك
الحجرة التى كانت روضة من النعيم فانقلبت في لحظة
قاعة للاعدام . ومرت بى دقيقة أهول من يوم القيامة
وعند ذلك فتح الله على وحات عقدة من لسانى
ونظقت متلفظاً :

يخيل إليّ أن هذه ليست بمبارزة ، ولكنها
جريمة قتل مصحوبة بسبق الإصرار والرصد .
وأنت يا صاحبي سيلفان لم تتعود والله أن تفاجئ
بتسديد سهامك إلى صدر رجل أعزل أو رأسه .
نخفض الشيطان يده وقال :

— بماذا تفتى إذن وأنت صديق الطرفين ، كما
أرى ؟ ولا أخفى عنك أن الكونت رمانى وأخطأ
فالدور على . قلت : أولى لكما أن تبدأ الأمر من
أوله مرة أخرى وإن كان مديناً لك بطلقة :

فقال : نزلت على إرادتك ، فهيا بنا نعيد القرعة
لنمين البادى ، فأحسست كأن الأرض تميد بى

(١) هذا يؤيد رأينا فى قانون المبارزة الذى يقتضيه السياق

فحيت الضابط المتوب وأفضيت إليه بكل ما جرى .
 فدوّن أقوالى وانتقل إلى مكان الحادثة وطلب من
 قاضى التحقيق أن يفحص الاتهام ويمحص الأدلة .
 وشهد خادمان بما جرى كما رويته ، فأطلق سراحى
 وقرر بأن لا وجه لأقامة الدعوى فقد كانت المباراة
 مباحة فى الفرق بين رجال الجيش . وقال قاضى
 التحقيق وهو يهنئى بالنجاة من غدارة ذلك الوحش
 القاسى : دقة بدقة . إن القانون فوق العرف ، والعدل
 فوق القانون . وبعد شهر علاج وعناية فائقة ،
 استعادت الكونتيس وعيها وقوتها . وكانت إجازتى
 قد انتهت فاستأذنتها فى الانصراف ، وأما أحسب
 أنها تقرر مقدى عليها بشر ما أصابها فى أعز إنسان
 لديها . ولكنها استمهلتنى واستبقتنى قائلة : لقد
 فقدت بعلى وحبيبى ، ولم يكن لك فى مصابه يد ،
 بل لقد تأثرت له فى التو والساعة ؛ وبإيتك سبقت
 القدر بمسدسك إلى خصمه وخصمك

ولكننى علمت أنها تكون جناية قتل لا مبرر
 لها ، وأن المرحوم لم يكن ليفرغها لك لما أعلمه من
 إبانته القدر بطبعه ، فإن شئت جددت إجازتك ولو
 أياماً معدودة .

قلت لها : بأى عذر ؟ وإن إجازة الضابط لا
 تمتد إلى أكثر من ثلاثين يوماً ، إلا لعل واحدة .
 قالت : وما هى ؟ قلت : الزواج . قالت : فليكن
 هذا عذرك على بركة الله . قلت : إنها لا كذوبة
 غليظة فلا أتوى أن أعقد على عروس لم أختارها
 وما زال قلبى خالياً . قالت : من يدري ؟
 فاكثفت بهذا التلميح وطفرت قلبى فرحاً .
 وتناولت قرطاساً وقلماً وكتبت طلبى ، فقالت وهى
 تداعبنى مداعبة حزينة

وكانت كلمات لو قيلت لصخر لداب وتفتت ،
 ولو قرئت على حديد للأن وسال
 ولكن سيلفان الذى لم يعرف قلبه الشفقة قال :
 — إن زوجك يا سيدتى لا يزال يعزح ، فلقد
 لطمنى مرة على حر وجهى وهو يعزح ، وأطلق على
 رصاصة أنفذها فى قبعتى وهو يعزح . والآن إذا رمانى
 فأخطأنى إنما كان يعزح ، فلا حرج على الآن إذا
 رأيتنى أيضاً أريد أن أصرح

وعلى أثر هذه الكلمات رفع مسدسه ليسدده
 إلى صدر صاحبه فألقت الكونتيس بنفسها على
 قدميه فغلى الدم فى عروق ومهمت أن أنشب أظفارى
 فى عنقه حتى ترهق روحه قبل أن يشهد زوجها
 مصرع كرامتها ولكن الكونت تعجلى بنظرة
 غاضبة وصاح بها :

— أنهضى باماتيلده أما تستحين ! أما تحجلين ؟
 وأنت يا سيدى هلا كففت عن السخر والاستهزاء
 بامرأة ضعيفة مسكينة ؟ مسكينة ! خبرنى أنت
 فطلق أم ممسك ؟ فقال سيلفان : بل مطلق
 وفى تلك اللحظة أطلق ، وأصاب الكونت فى
 رأسه ، فخر صريعاً وكانت الزوجة قد أغمى عليها
 من الذعر وهم سيلفان بالخروج بعد أن أنحنى بحينى
 فقلت له : مكانك واقترع . وخرجت القرعة لي :
 فتناولت مسدس الكونت وصوبته وأطلقت طلقة
 نجلاء سبقتنى إلى تسديدها يد العناية واخترمت صدره .
 وتكوّم كالأنفى وخاضت إلى ساحة القصر وناديت
 الخدم والحوزى الذى جلبه ونقلنا الكونتيس إلى فراشها
 وعهدت إلى وصيفتها أمر العناية بها حتى يدركها الله
 باطفه والطبيب بملاجه . وركبت الركبة فانطلقت بى
 قبل أن أستفيق من تلك الغمرة ، إلى دار المحافظة

وكتبه وأخفوا كل ما كان يذكرها بشخصه ؛
وقالت لي وهي ترتجف : قد آن لرب الدار أن يحل
منها محله ، كما حل من قلب زوجته ؛ فامتعضت في
قرارة نفسى واسكننى وافقنهما في تنفيذ مشيئتهما
وقديماً قالوا : « إرادة المرأة من إرادة الرب »^(١)
والقول قولك وأنت الآمرة الناهية في قصرك

وبعد هذا الانقلاب بشهر واحد ، صحت من
نومى وكنت أعزم أن أحجبها في زهرة خلوية
فقبلتها قبله الصباح ، ولكن شففى ارتدما جامدين
فقد كانت جثة هامدة وقد أسلمت الروح ، على
ما زعم الطبيب أثناء النوم ، بعد رؤيا فاجعة سببت
بغتة وقف دقات القلب . ومضت على هذه الحوادث
أعوام كانت أمراً وأدعى ما حيت من العمر ،
فاشتغلت بالزراعة وجعلت أثناء ذلك آسف على ما فات
من لذة العيش في الجندية ، وآسى على ما سلف من
حياة الزواج والحب . أما زوجها الأول وخصمه
الذى قتله ، فقد دفنا متجاورين

محمد لطفي جمعة

(١) مثل فرنسى سائر Ce que femme veut, Dieu
le veut

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

التمن ١٢ قرشاً

— وإن سألوك عن اسم تلك التى ستسعد
بعاشرتك ، أولاً يسألوئك ايشاركوك أفراح
زفافك ؟

— قلت : هذا الذى لا أعلمه وكاد القلم يقع
من يدي . قالت : أكتب : الكونتيس بورنيوا
دى لا فيسيل لافيه ! فأهويت على وجهها ويدها
وعنقها أقبلها وأشم رائحتها العطرة ، وأذرف الدمع
السخين من فرط سعادتي وحزناً على سافى . وهنا
سكت ادوارد يبون ، فظننت أنه وصل إلى آخر القصة
ولكنه عاد فقال : « وقد قضينا ثلاث سنين أسعد
ما يكون زوجان وأدهشتنى سرعة النسيان الذى
جر ذيله على ذاكرة الزوجة . وكنت أغلب نفسى
كلما شعرت باللوم يتعمد فى غيائى ، فإنها لم تنس
قربنها ، إلا بسببى . والمرأة إن فقدت الأمل فى
أحب رجل إليها ، فإنها بحكم الطبع والطبيعة ،
تبادر إلى التنقيب عن غيره لتتعلق به ، وقد عشنا
فى جو من الصفاء والحب لم تشبه شائبة ، غير أنها
كانت أحياناً ترى مى فيما يرى النائم أشباحاً ترعبها
فتنهض مذعورة تبكى . فاذا ما فتحت عينها ورأيتنى
بجانها عاودها اطمئنانها والتصقت بى ، كما يلصق
الطفل الخائف بصدر أمه . وقد أدهشنى أنها كانت
تحتفظ بكل ما فى القصر من ذكريات المأسوف عليه
زوجها الراحل ، فقيدى وفقيدها ، فهذه صورة
الفخمة فى البهو وغرفة الطعام ، وتلك ثيابه الغالية
وزنه العسكرية على المشجب ، وكتبه وأوراقه لا
تزال حيث تركها ليلة مصرعه ، وخيله المظهمة مازال
فى اصطبلها العامر بأمر السائسين وأجود العلف
وفى يوم من الأيام نهضت زوجتى وجمعت الخدم
فى قاعة الاستقبال وأمرتهم أن يقلبوا القصر رأساً
على عقب ، فنقلوا تصاوير المرحوم وثيابه وأسلحته